# الفصل الثالث

# ما بعد نقطة التفتيش «تشارلي»

من هذه الأوقات المضطربة... يمكن أن ينشأ نظام عالمي جديد: عالم أبعد ما يكون عن تهديد الإرهاب، وأقوى سعيًا لتحقيق العدالة، وأشد اطمئنانًا لتحقيق السلام. إنه عصر يمكن فيه لدول العالم شرقه وغربه وشماله وجنوبه أن تزدهر وتعيش في انسجام.

جورج هربرت وولكر بوش 1990

كيف يمكن لرجل يعيش في كهف أن يتفوق في الاتصالات على أكبر تجمع للاتصالات في العالم.

ريتشارد هولبروك 2001

تغير العالم عام 1989، وكان تغيراً مزلزلاً. مع ذلك، لم يكد أحد يشعر ولو بهزات طفيفة.

أدركت فجأة هذا التغير لأول مرة في ألمانيا خلال زيارة بعد أن ترقيت حديثاً لرتبة عميد. وكجزء من إعدادنا للترقية إلى الرتبة ألأعلى، فمن نال حديثاً رتبة العميد يخضع لما نسميه دورة تدريب القمة ـ وهي محاضرات وحلقات نقاش وزيارات إلى المواقع العسكرية مع التركيز بصفة خاصة على المناطق التي سيتم تكليفنا فيها (وكنت سأذهب إلى القيادة الأوروبية). وقد زار زملائي في الدورة التدريبية

قواعد حلف الناتو والقواعد الأمريكية ومراكز القيادة في أوروبا، بما في ذلك بعض المراكز فيما كان آنذاك برلين الشرقية ـ في «جزيرة» تقع على مسافة بعيدة خلف الستار الحديدي، الذي كان يتهاوى في ذلك الوقت ـ وهي مدينة عصرية وصاخبة ومثيرة ومفعمة بالنشاط والحيوية. وعندما وصلنا إلى برلين كانت المدينة قد أصبحت بالفعل مسرحاً رئيساً للأحداث المتصاعدة بسرعة، تماماً مثلما كانت مسرحًا رئيساً في دراما الحرب الباردة.

وقبل أن نصل بفترة قصيرة، كان الروس والألمان الشرقيون قد هجروا سور برلين، فلم يعد حدًا فاصلاً بعد ذلك، وقد تركه الحراس بلا حراسة، فأتاح هذا الموقف الجديد الغريب فرصة رائعة للعمداء الجدد البارعين المتحمسين؛ وللملازم الذي لا يعرف الكلل من لواء برلين التابع لجيش الولايات المتحدة، والذي تحمل مهام مرافقتنا، فانتهزنا الفرصة. عرض علينا أن «نذهب في جولة سريعة داخل برلين الشرقية». فقلنا في أنفسنا: «ولمَ لا؟ من هناك ليوقفنا؟» كانت فكرة رائعة... ويحتمل أن تكون مغامرة كبيرة. وقد ثبت بالفعل أنها رحلة تثقيفية، لكن واجهتنا أيضاً صدمات ومفاجآت. وجاءت هذه المفاجآت حين اجتزنا نقطة التفتيش «تشارلي».

كانت هناك، كما شاهدناها في عدد لا حصر له من أفلام الجاسوسية، رمزاً بارزاً للحرب الباردة، البوابة التي كانت تعلن بصراحة أكثر من أي بقعة أخرى على الأرض: «في جانبنا توجد الحرية، وفي الجانب الآخر القمع الشمولي».

وفجأة انتهى أمرها، أصبحت بدون رجالها في يوم وليلة، بلا عنف، فقط تركوها ومضوا.

وكانت لحظة المرور من أكشاك الحراسة الخالية من الحراس الآن وعبر البوابات الشاغرة من أغرب اللحظات في حياتي. كنا هناك، ضباط من الجيش الأمريكي برتب عالية، يستقلون سيارة عبر نقطة التفتيش «تشارلي»، ولا يراقبنا أحد.

وبعد نقطة التفتيش لم نجد مدينة مختلفة فحسب؛ وإنما عالماً مختلفاً. انعطفنا عبر الزمن من برلين الغربية العصرية النابضة بالحياة لنعود إلى خمسينيات القرن العشرين. كانت برلين الشرقية مدينة كئيبة قاتمة رتيبة، وفيما عدا بعض الشوارع التي تشبه واجهاتها تلك الواجهات المصطنعة التي تظهر في السينما، كنا نرى عبر الشوارع إما مبانٍ قديمة لا تزال تتناثر عليها آثار التدمير من الحرب العالمية الثانية، أو مبانٍ أحدث أسمنتية رمادية متلاصقة، وإن كانت رثة ومتهدمة أيضاً. أما السيارات والشاحنات فكانت قليلة وقذرة وتقذف دخاناً. كان عدد كبير من الناس يركبون الدراجات الهوائية الكلاسيكية ـ طراز الخمسينيات ـ في تناقض صارخ مع سيارات المرسيدس وبي. إم. دبليو التي تزدحم بها شوارع برلين الغربية.

بعد ذلك وجدنا ثكنة عسكرية سوفيتية، فدخلنا عبر البوابة وخرجنا من سياراتنا وتجولنا في المكان... وكانت لحظة غريبة أخرى. لم يكن لدى الجنود الروس أدنى فكرة عما يفعلونه معنا: هل نحن أشرار؟ هل نحن غزاة؟ هل نحن أصدقاء؟ وكأن الحيرة شلت

حركتهم ـ وربما أي خيار آخر ـ فلم يفعلوا أي شيء، ولم يدروا أيطلقون النار أم يؤدون التحية العسكرية، فانشغلوا بما يفعلونه مثل الزومبي.* وكان واضحاً أن لبعضهم مهاماً عسكرية، لكن كان يمكن أن ترى أن هذه المهام لم تعد ذات جدوى، وبدا أن الروس يعلمون ذلك. ففي شوارع الثكنة ومحالها كانت الزوجات مع أبنائهن وعربات أطفالهن الرضع، مثل أزواجهن، يشبهن إلى حد بعيد الأيائل أمام مصابيح السيارات، تتوسل وجوههن في صمت «ما الذي سيحدث لنا بعد ذلك؟ إلى أين سنذهب؟» وتحولت هذه الأسئلة إلى أسئلة حقيقية ومؤثرة للغاية، إذ لم يعد لهم مكان يذهبون إليه في روسيا.

أدركت آنذاك أن هناك شيئاً قد تغير بالفعل، لكنني لم أستطع إدراك كنه هذا التغير، ولم أكن على يقين أن كل شيء لن يعود إلى ما كان عليه.

بعدما عدنا مروراً بنقطة التفتيش، توقفنا وقمنا بفك قطع من سور برلين ـ وقد كان أبرز رموز الحرب الباردة، ولكنه في تلك اللحظة كان يرمز لشيء مختلف كل الاختلاف.

ولا تزال تلك القطع من سور برلين عندي.

وفيما بعد في جولتنا الأوروبية، قمنا بزيارة مراكز قيادة الجيش الأمريكي في أوروبا ومقره في هايدلبرج، حيث قابلنا رئيس الأركان،

* Zombie, Zombies الأفعى المؤلهة في العقيدة الودونية، ويزعم معتنقو هذه العقيدة أنها تدخل أجساد الموتى فتحييها ومن ثم يطلق اسمها على الميت الذي يعود للحياة بهذه الطريقة من غير أن يستعيد القدرة على الكلام وحرية الإرادة. (المترجمة)

وكان لواءً ضخم الجسم وقوي البنية، واسمه بيل بيرلسون (وكان يلقب «بالدب»).

هانحن، مرة أخرى، مجموعة من العمداء، جميعاً خبراء في الشؤون العسكرية، لكن أغلبنا أقل دراية بالقضايا العالمية الكبرى. وهنا كان هذا الجنرال الضخم الخشن الذي شهد، كما تبين لنا، الصورة الكلية مباشرة وبوضوح تام. وعندما وصلت مجموعتنا إلى أوروبا، لم ندرك حقًا أن سور برلين قد سقط فعلاً، وبأن الإمبراطورية السوفيتية لم يعد لها وجود.

وخلال فترة مناقشة مع الجنرال بيرلسون، طرحنا أسئلتنا المتوقعة حول وجود قواتنا في أوروبا وعن الحرب الباردة، ومعاهدة وارسو والوضع الراهن... وكل أنواع الأسئلة المتعلقة بسير الأمور طوال السنوات الخمسين الماضية. وربما كانت أسئلتنا تلك كانت ستبدو في غير محلها لو أنها سئلت قبل عام واحد أو حتى قبل بضعة شهور من تاريخ زيارتنا.

عندما طرحنا أسئلتنا، لم يفعل بيرلسون سوى أن تطلع إلينا بنوع من التسامح الباسم الذي نتعامل به مع الأطفال، وقال: «لا، لا، لقد انتهى الأمر؟».

لكننا في الحقيقة لم نسمعه، وكنا حتى ذلك الحين لا نفهم، وظللنا نلقي عليه سلسلة أسئلتنا التي لا صلة لها بالموضوع. فظل طوال الوقت ينظر إلينا فحسب ويكرر: «انتهى الأمر! انتهى الأمر!... إنكم لا

تفهمون ما أقول أيها الفتيان. لقد انتهى الأمر! ألا تفهمون أيها الفتيان؟ لقد انتهى الموضوع. انتهى. لم تعد هناك حرب باردة».

عندما تجمعنا في حافلتنا الصغيرة لنتجه إلى المكان التالي في جولتنا، بدأت أفهم رسالته تدريجياً: «لقد تغير شيء عظيم، لا أفهمه تماماً، لكنني رأيت للتو وبصورة ملموسة من برلين ما كان يقوله لنا هذا الجنرال. لم يعد للنظام القديم وجود، لقد انتهى أمره، تلاشى. وثمة شيء جديد هناك. وقد انقلب حال العالم تماماً بين يوم وليلة، لكن ماذا يعني هذا؟»

قفزت إلى ذهني فجأة ذكرى من الصف الأول الابتدائي ـ كنت أحمل غطاء وسادة معي إلى المدرسة من أجل تدريبات الدفاع المدني التي كنا نقوم بها. وعندما انطلق صوت صفارة الإنذار اندفعنا تحت مقاعدنا المدرسية، وفقاً للتعليمات، وقمنا بتغطية أكبر مساحة من أجسامنا بأغطية الوسائد الموجودة معنا، وإلا نزلنا في طابور إلى قبو المدرسة، الذي كان الملجأ المخصص للدفاع المدني، بإشاراته الصفراء وأدوات النجاة المكومة فيه. في تلك الأيام كان المواطنون يبنون غرفاً محصنة تحت الأرض في الفناء الخلفي، ويتجادلون من الناحية الأخلاقية حول السماح بدخول الجيران الأقل استعداداً لتلك الظروف الطارئة أو عدم السماح لهم بذلك. ولسنوات طويلة من عمري، تتجاوز الأربعين عاماً، عشنا في ظل هذه الظروف ـ مستعدين لمعركة فاصلة. والآن انتهى الأمر!

## عدم النظام العالمي الجديد

لقد شهدنا تحولاً ملحوظاً في المجتمع العالمي بالكامل يشبه في اتساعه وعمقه التحولات المزلزلة التي أعقبت الحربين العالميتين الأولى والثانية. ففي عام 1989 لم يعد سور برلين يفصل بين الشرق والغرب، وأعني بذلك أن التقسيم التام بين الشرق والغرب ـ أي الستار الحديدي نفسه ـ لم يعد له وجود، وكانت الإمبراطورية السوفيتية آنذاك في طريقها إلى مزبلة التاريخ ـ وعلى غير المتوقع غادرت المشهد بأنينٍ منهك مسلوب القوة بدويٍّ يهز العالم. وتراجعت القوتان النوويتان العظميان عن مواجهتهما التي استمرت طيلة خمسين عاماً، وتلاشى رعب الحرب النووية العظمى، وأعيد ضبط ساعة يوم القيامة، واستطعنا أن نتخلص من أسلحة الدمار الشامل. وكان الجميع في كل أرجاء العالم بوسعه أن تشعر بالراحة التي كادت أن تكون صادمة.

انتهت حرب الخمسين عاماً ـ حرب «باردة»، لكنها حرب حقيقية ـ دون أن تخلف وراءها ملايين القتلى و ملايين المشوهين، وملايين غيرهم مشردين ومدناً مدمرة ومخربة، وأراض مقفرة عليها آثار المعارك، وأمراضاً ومجاعات... ولا مناطق مثل دريسدن وهيروشيما وكوفينتري وستالينجراد.

ومع التحرر من التوترات الدولية صار هناك إيمان قوي بقرب الوصول إلى نظام عالمي جديد قوامه السلام والرخاء والأمان.

الناتو؟ من يحتاج إلى الناتو؟ الإنفاق على الدفاع؟ هه! لا حاجة لإلقاء كل ذلك المال في الفم العسكري الواسع الذي لا يشبع. لنر ماذا يمكن أن نفعل بذلك المال، ولنضعه حيث نحتاجه بحق: تخفيض الضرائب! إحلال السلام! نظام عالمي جديد!

ما الذي سيسبب ميلاد هذا العصر الجديد الرائع؟

كان الإحساس أنه سيحدث فحسب، كان هذا واضحاً، وكان أمراً طبيعياً. كان كل فرد في العالم يرى الضوء، أو هكذا كان الاعتقاد.

لكنه لم يحدث.

فبعد خمسة عشر عاماً على ذلك، من يمكنه إنكار أننا الآن انخرطنا إلى حد بعيد في نضال صعب ومعقد وطويل الأمد لتحقيق السلام والاستقرار والرخاء والنمو المتصاعد الذي كنا نظن أننا وصلنا إليه آنذاك؟ وبدلاً من هذه الإنجازات المأمولة، ها نحن نشهد تغيراً تلو الآخر، ونفاجأ به أعنف وأعنف وبتكرار أكبر. ولم نتمكن حتى الآن من فهم هذه التغيرات. كما أننا نرى في العالم فوضى وتشوش أشد خطراً... حتى بدا علينا الارتباك، بل والعجز عن كيفية مواجهة التهديدات، وبدرجة أقل عن كيفية السيطرة عليها، تصورنا أننا سننال السلام، فلم نحصل على أي شيء يشبه السلام الحقيقي، وزاد انخراط جيشنا في كل أنواع الأعمال العسكرية بعد الحرب الباردة عما كان قبل انتهائها، ولم نقترب من أي مكان كنا نظن أننا سنكون فيه الآن. فلمَ هذا؟

في القرن الماضي، كانت هناك ثلاثة تحولات مزلزلة في أرجاء العالم، نتج عنها جميعاً عمليات إعادة تنظيم كبيرة ـ بعد الحرب العالمية الأولى وبعد الحرب العالمية الثانية وبعد الحرب الباردة، وما أقصده بإعادة التنظيم هو التغير العنيف في البيئة بأكملها ـ توازن القوى بين الدول الكبرى، قواعد التفاعلات بين الدول، وكيفية عمل الاقتصاد العالمي، فهذه التغيرات المهمة تتطلب تغييراً عنيفاً في أسلوب التفكير في العالم الجديد وأساليب التعامل معه، وقد تظهر الآثار المتولدة عن هذه التحولات الهيكلية من خلال أبعاد عديدة ـ في التقنية وعلم الاقتصاد، ووسائل الإنتاج وأساليبه، وفي توافر الموارد واستخدامها، وفي ظروف العمل، وفي العلاقات بين الدول ذات القومية الواحدة، وفي أسلوب حكمها الداخلي، وفي التهديدات الخارجية التي تتعرض لها.

وحين نأخذ جميعاً هذه الظروف كلها في الحسبان ونصوغ أساليب جديدة للبيئة المتغيرة، سنعيد صياغة تفكيرنا الإستراتيجي القومي، ونعيد تحديد هدفنا القومي في عالم من نوع جديد.

عند انقضاء الحرب العالمية الأولى، حاول وودرو ويلسون تحديد هدف جديد للولايات المتحدة في العالم المعاد تنظيمه حديثاً. ففي رأيه، كان على أمريكا أن تستخدم قوتها المكتسبة قبل عهد قريب للتأثير على العالم من أجل الوصول للأفضل، وربما منع تكرار الظروف التي سببت الحرب العالمية الأولى، فسعى ويلسون لتصدير الديمقراطية ودعا إلى حق الشعوب ـ التي كانت تحكمها

إمبراطوريات استعمارية ـ في تقرير مصيرها، وكانت تلك الإمبراطوريات أكبر حلفاء أمريكا في أوروبا.

ولأسباب عديدة لم يقبل الشعب ولا الكونجرس الهدف الجديد للرئيس؛ إذ لم يكن هناك استعداد للتخلي عن نصيحة واشنطن وجيفرسون بالتركيز على تنمية دولتنا وتجنب «الورطات الخارجية».

كان رفض اقتراح ويلسون يعني أن الدولة قد حددت هدفاً واحداً ـ ألا وهو الانعزالية*.

لقد عهدنا ارتياح أمريكا لحدودها الآمنة وللمحيطين الواسعين الذين يفصل كل منهما الولايات المتحدة عن أخطار أوروبا وآسيا وورطاتهم، كما يوفران طرقاً سريعة رائعة للتجارة. كانت وجهتنا غرباً، في قارتنا، وفي نصف الكرة الخاص بنا. وفي سنوات النمو الأولى من وجودنا القومي، كانت العزلة دائماً اختياراً سهلاً وسبباً للسعادة بالنسبة للأمريكيين، لكنه كان الاختيار السيئ في عالم ما بعد الحرب العالمية الأولى، كما أثبت العقدان التاليان للحرب.

إن إخفاق عدد كبير من الدول ـ وليس دولتنا فقط ـ في بناء نظام عالمي بدلاً من ذلك الذي زال بانتهاء الحرب العالمية الأولى، تسبب في الظروف المضطربة التي أدت إلى الحرب العالمية الثانية.

وبعد الحرب العالمية الثانية، قام الرئيس هاري ترومان ووزير خارجيته جورج مارشال بإعادة صياغة أسلوب دولتنا ليتناسب مع

* Isolationism سياسة قوامها الانعزال السياسي وعزوف الدولة عن إقامة العلاقات الاقتصادية مع الدول الأخرى. (المترجمة)

العالم المتغير على نطاق واسع، وكان ذلك الهدف القومي هو التأكيد على الحرية، عن طريق دعم الدول المستقلة، والترويج للاقتصاد المفتوح، وردع الاتحاد السوفيتي واحتوائه.

هذه المرة لم يَسُد الأسلوب الجديد فحسب، بل تطور أيضاً إلى هدف قومي ممتد نقلنا بنجاح إلى الحرب الباردة. ولأن أسلوب ترومان نجح تماماً، وكان قوياً بما يكفي ليصمد أمام وطأة عدة عقود وضغوطها، استطعنا أن نعتبره تطوراً طبيعياً. مع ذلك، لم يكن الأسلوب الإستراتيجي الجديد وقت إنشائه واضح المعالم ، كما أنه أثار جدلاً واسعاً ولاقى مقاومة شديدة.

لقد شهد ترومان ومارشال نهاية الحرب العالمية الثانية، وكانت أول صراع عنيف بحق يمتد عبر الكرة الأرضية، هزمنا فيها الفاشية، ثم عاد جنودنا وبحارتنا وقوات المارينز إلى الوطن إلى ازدهار اقتصادي سريع ـ وتصاعد في عدد المواليد. كانت الحياة رائعة. وكان كل شيء في العالم على ما يرام! ولم يكن من الصعب الاستسلام لإغراء العزلة نفسها التي خضعت لها أمتنا بعد الحرب العالمية الأولى. لكنهم رأوا، مثلما رأى ويلسون، وجود حاجة إلى إحداث تغيير في أحوال العالم، وإلا سيكون تكرار أحداث الماضي قدراً محتوماً.

في أعقاب الحرب مباشرة، بدأ ترومان ومارشال مبادرتهما الكبرى. وكانت رؤيتهما للشؤون الدولية تقوم على هذه الأعمدة: اقتصاد دولي مترابط ومستقر، ويرتكز على منظومة بريتون وودز، لتجنب الكوارث الاقتصادية مثل تلك التي وقعت في ثلاثينيات القرن

العشرين عن طريق ضمان تنسيق وتعاون أكبر، وكانت خطة مارشال توفر مساعدات اقتصادية كانت أساسية في إعادة بناء أوروبا الغربية، وهيئات دولية قوية ـ مثل الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي ـ وإيجاد منتديات لمناقشة الأمور السياسية والاقتصادية، واحتواء الاتحاد السوفيتي عن طريق الإبقاء على القوات الأمريكية في أوروبا وإنشاء حلف يخوّل لأمريكا الدفاع عن الدول الأخرى ـ ألا وهو حلف الناتو.

أدرك ترومان ومستشاروه أيضاً أن على الحكومة الأمريكية أن تتغير لكي تتفاعل بصورة أشد تأثيراً مع العالم الجديد الذي كان في سبيله للظهور. لذلك قاموا بإصلاح الجيش وإنشاء مجلس الأمن القومي والقيادات المشتركة ووكالة الاستخبارات المركزية، وقد فعلوا كل ذلك بنظرة تفاؤلية وليس خوفًا من التهديد؛ إذ لم تتنبأ سوى قلة في ذلك الوقت بأن الاتحاد السوفيتي سوف ينهض ليصبح قوة عظمى معارضة. ومن المؤكد أن السوفيت كانوا يتسمون بالصعوبة في التعامل، لكن لم يمثلوا تهديداً، فلم يكن هناك ما يدعو للقلق.

مع ذلك، أحس حفنة من ذوي الحصافة أن العالم يعاد تنظيمه برغم أنه لم يكن بمقدور أحد بالفعل أن يضع إصبعه على ما يعنيه ذلك ولا على كيفية سير الأمور خلال السنوات والعقود التالية. فنظر هؤلاء إلى الماضي، إلى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى، وتعرفوا على الأخطاء، واقترحوا خطوات جديدة للتأثير في صياغة جديدة للعالم في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية. فهل كان هؤلاء

الرجال يتمتعون بحكمة وبصيرة تجعلهم يتنبأون بالحرب الباردة، وبالحاجة إلى إستراتيجية الردع والاحتواء، أو إلى الموضوعات الكبرى الأخرى في الخمسين سنة التالية؟ إنني أشك كثيراً في ذلك.

لقد أدركوا أن إعادة التنظيم لا تعني بالضرورة ميلاد نظام جديد محسّن ـ لأن ذلك ليس أمراً طبيعياً، ولاسيما إذا تركت الأحداث لتتم حتى النهاية دون تدخل فيها (وكانت عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته شاهداً مأساوياً على تلك الحقيقة). فإن ترك الأمور على عواهنها هو مثل إلقاء زهر اللعب وانتظار أي احتمال يأتي به. والبديل الواضح لذلك هو جعل الميزات في صالحك عن طريق ممارسة بعض التأثير على الأحداث مع تفهم أن التحكم التام فيها مستحيل.

في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، عندما برز الاتحاد السوفيتي بوصفه قوة عظمى وأجرى اختباراً للأسلحة النووية والصواريخ بعيدة المدى، أثبتت إصلاحات ترومان ومارشال صدقها، وكنا في وضع مناسب يتيح لنا التعامل مع التهديد الصاعد، والسيطرة على معظم الأحداث.

في غضون ذلك، كانت القوتان العظميان مشغولتين بالتعلم من التاريخ، وفحص الدروس المستفادة من المرحلة التي سبقت الحربين العالميتين، وتحليلها.

في أغسطس من عام 1914، لم يكن أحد يفكر حقيقة في أن أوروبا ستخوض حرباً. قام بعض الثوار المجانين باغتيال أرشيدوق نمساوي، وفي الحقيقة لم ينزعج أحد لذلك. كان الناس في أجازة الصيف، وظل

الزمان الجميل جميلاً وساراً. وحتى عندما وضع شخص ما خطط الحرب موضع التنفيذ عن طريق الضغط على الأزرار التي استدعت قوات الاحتياط وجعلت قوافل تموين الجنود تتحرك (كانت الخطة تقوم على استخدام الآلات أوتوماتيكياً) ظل الجميع على هدوئهم لاطمئنانهم إلى وجود عقول أكثر هدوءاً وحكمة ودهاءً دبلوماسياً ستقوم بترتيب الفوضى. وانتهى هذا الوهم بدوّي المدافع.

في عاميّ 1938 و1939، لم ير الدبلوماسيون الهادئون الحكماء رغبة النازي في التهام أوروبا، رغم أن نوايا النازيين كانت واضحة.

وفي خمسينيات القرن العشرين وستينياته، كانت لدى القوتين العظميين دوافع قوية لتجنب شراك ما قبل الحرب العالمية الأولى وما قبل الحرب العالمية الثانية، وكانتا مسلحتين بأسلحة يمكن أن تدمر العالم بأسره. وكانت تلك حقبة «النجاح المؤكد» و«التدمير المتبادل المضمون». وكان كل من اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية والولايات المتحدة يعرف مدى سهولة الضياع في سلسلة من الأحداث المتلاحقة التي لم يتمكن أحد من إيقافها. وكانوا يدركون كيف أن الأحداث الصغيرة في الأماكن النائية يمكن أن تدفع نحو المواجهة النووية، وكانوا يراقبون هذه الأحداث الصغيرة ويتدبرون أمرها بعناية. وحتى عندما يقاتلون بعضهم البعض في أماكن بديلة، أو يتورطون في دعم دول مثل فيتنام، فإنهم يتوقفون عن ذلك، وكان دعمهم دائماً مشروطاً. لماذا غزت الولايات المتحدة فيتنام الشمالية؟ لأن الغزو كان سيجبر الروس والصينيين على المشاركة في القتال علناً.

ومن هناك إلى اندلاع الجحيم النووي لم يكن ثمة انتقال مفاجئ أو وثبة كبيرة.

فقد رأى كل الناس السلسلة كاملة.

في عام 1962 جاءت أزمة الصواريخ الكوبية عندما ارتفع الجانبان في السلسلة إلى درجة أعلى من أي وقت مضى. فهل كان السوفيت يتصورون أن وضع بضعة صواريخ وفرقة عسكرية من الروس في كوبا سيصل بالعالم إلى شفا التبادل النووي؟ أشك في ذلك. كانت هذه مجرد نقلة أخرى في لعبة لا رابح فيها ولا خاسر، حيث يجب إدخال كل شيء في الحسبان. فهم الآن يملكون كوبا وكاسترو، كما قاموا بنقلة أخرى في اللعبة إذ حركوا الحصان إلى المربع ب .3 أما الشيء التالي فهو أننا عرفنا أننا كنا على مقربة محفوفة بالمخاطر من «الكبير» (الملك).

لكن كلتا القوتين توقفت عن صعودها نحو الجنون قبل أن تصل إلى نهاية السلسلة. وتُظهر كل تحليلات أزمة الصواريخ الكوبية خوف كلا الجانبين من أن يفقد السيطرة.

كان هذا أشد الأوقات خطورة في تاريخ البشر؛ إذ كان من الممكن أن ندمر الحياة البشرية على الكوكب بأسره بكل ما تحمله الكلمة من معنى. لكن كان الأمر بسيطاً ويمكن تفهمه. كانت كل الأطراف تعرف مخاطر الحسابات الخاطئة، وكانت على علم تام بقواعد اللعبة.

أصبحت تلك الحقيقة واضحة جلية بالنسبة لي ذات يوم بارد من أيام ثمانينيات القرن العشرين في زيارة إلى منصة قذائف باليستية

عابرة القارات في ميد وست، وبوصفي اختصاصياً شاباً في تقنية قذائف القوات الجوية، كنت أحشر نفسي لأنزل على سقالة ضيقة إلى جانب صاروخ ضخم، فكرت ساعتها كيف أن القوة التدميرية المرعبة التي كنت أعتليها يمكن أن تنطلق لو لم نتمكن من منع حسبة خاطئة، أو تصرف طائش، وبرغم أن كلا القوتين العظميين كانت عندها إستراتيجية تنافسية، كان هناك تحكم في الأمر، ومن ثم نوع غريب من الاستقرار.

غيّر انتهاء الحرب الباردة كل ذلك، ورُفع الغطاء، وتضاءل الاستقرار الذي فرضته القوى العظمى والذي كان يمكن التحكم فيه، ولم يحل محله شيء، كنا نتوقع نظام عالمي جديد من السلام والرخاء تنعم به الأرض، لكننا أخطأنا كما لم نخطئ من قبل، فبدلاً من السلام والرخاء الذي يعم كوكب الأرض، خرجت كل الأفاعي مع عواقب لم تظهر بعد، ولم تعد القوى العظمى، التي تقلصت الآن إلى واحدة، موجودة لإنهاء المشكلات، كما في لعبة لا غالب ولا مغلوب السابقة، ولو بضم حتى أقل الدول أهمية إلى نطاق تأثيرها، وتبين أن النظام العالمي الجديد ليس إلا فوضى عالمية جديدة، أما ما يسمى بإحلال السلام فقد ذهب إلى غير رجعة تماماً مثل سور برلين ونقطة التفتيش «تشارلي».

لقد قاسينا من تحول زلزالي يتساوى مع انتهاء الحربين العالميتين الأولى والثانية، لكننا لم نتعامل معه بالطريقة نفسها؛ إذ لم نقم

بالتحركات الكبرى التي كانت تقتضيها الأحداث، ولم نتوصل إلى أسلوب إستراتيجي جديد للتأثير على شكل عالم ما بعد الحرب الباردة، وربما كان ذلك بسبب أن نهاية حقبة الحرب الباردة لم تكن ضخمة وعنيفة ومدوية، كانت ثمة حاجة ملحة لإعادة صياغة هدفنا في صورة إستراتيجية: فإن هدفنا الإستراتيجي هو ما يوجه السياسة، ويوجه بناء الجيش، ويحدد التوجه الاقتصادي، ويوجه الدبلوماسية ويوجه تأثيراتنا الاجتماعية وتفاعلاتنا الثقافية ويحدد التحالفات، إنه أساس كل ما نقوم به من أفعال في العالم لضمان الاستقرار والأمن والسلام.

لكن لأن التحول جاء عند انتهاء حرب باردة، وهي نوع يختلف اختلافاً جذرياً عن بقية الحروب ـ لم نر مستوى التأثير نفسه في الدول «المهزومة» ( ولم يكن من الممكن حتى أن نسميها مهزومة). فعند انتهاء الحروب الكبرى، يكون لديك مجتمعات منهارة وبيئات متغيرة تغيراً جذرياً. وقد حدث ذلك عند انتهاء الحرب الباردة. ومع ذلك، كان لدى الناس في الغرب اعتقاد ساذج بأننا ما إن نزيل نظاماً قمعياً من فوق كاهل من يعيشون خلف الستار الحديدي سيثمر ذلك آلياً نظماً ديمقراطية تتمتع فيه دول هذا الستار الحديدي بالأمن والرخاء.

في بعض الدول، كما في بولندا مثلاً، حيث أزاح النظام السوفيتي المؤسسات الصالحة للتطبيق التي كانت موجودة قبل السوفيت، فتح اضمحلال النظام السوفيتي طريقاً لتجديد مؤسسات ما قبل

السوفيت لديهم. فعادت هذه الدول سريعاً إلى الديمقراطية، وأساليب الاقتصاد الغربية، لكن في أي مكان آخر في الإمبراطورية السابقة، كانت الديمقراطية بلا تنظيم أو تخطيط.

في عام 1989، وجدنا أنفسنا في عالم أحادي القطب. كانت الولايات المتحدة هي القوة العظمى الوحيدة، بهذه القوة الهائلة التي لا يمكن لأي منافس أن يهدد وجودها تهديداً مباشراً، فبعد الحروب الأولى، ظهرت حفنة من القوى المسيطرة ـ وربما عدد آخر من القوى الإقليمية، أما هذه المرة فلم يبرز حقًا سوى رجل طويل واحد.

ولأول مرة في التاريخ ينتهي صراع خطير بدون عنف ساحق. لقد جاءت نهاية الإمبراطورية السوفيتية بانهيار مفاجئ ـ وصادم، ولم يستغرق ذلك عدة عقود، مثل سقوط روما.

لكن، لم يتنبأ أحد بأن البيئة الناشئة قد تكون بيئة عدائية للغاية. وبالتأكيد لم يعتقد أحد أن مجموعة مختلطة ومعقدة من الأحداث والظروف سوف تتجمع فيما كان يعد جزءاً هامشياً في العالم ـ ذلك الجزء الذي يقع خارج مناطق النفوذ المركزية للقوتين العظميين ـ لدرجة ستؤثر على العالم بأسره. حتى ذلك الحين، كان بوسع الدول المستقرة، أو دول العالم الأول، أن تختار تجاهل مشكلات العالم الثالث؛ إذ كان يمكن إبقاء تلك المشكلات التي تزعزع الاستقرار بعيداً عن حدودنا.

كانت توقعاتنا بالسلام والأمن والرخاء قوية لدرجة جعلتنا نتعامى عما كان يحدث في العالم، وعن قدر تأثيره علينا، وعما ينبغي عمله إزاء ذلك.

في القيادة الأوروبية، كلفت بإدارة العمليات (J - 3) في قيادتنا في شتوتجارت، بوصفي نائب المدير. وعندما كان يزيد مستوى الضغط في إحدى ورش العمليات، كنت أترأس أيضاً «فريق عمل الأزمات» ـ أو [CAT [Crisis Action Team ـ للتعامل مع الأزمة والأحداث الصعبة و المتلاحقة. وخلال عامين قضيتهما في القيادة الأوروبية، كان فريق عمل الأزمات أو مجموعة خبراء المعارك (وهو فريق أكبر لإدارة الأزمات) في حالة عمل واستعداد طوال الوقت، وسواء وُجد نظام عالمي جديد أم لا، فالمشكلات تتزايد وتتناثر في كل مكان.

كانت حرب الخليج عام 1990 هي أول أزمة كبرى تحدث. وكان كل امرئ يعرف أن هذه الأزمة سيتم السيطرة عليها عن طريق مجموعة جديدة من القواعد، التي تتولى وضعها القوة العظمى الوحيدة الباقية. وانتظر العالم بحرص ليرى كيف ستوضع القواعد.

هل ستعكس أسلوباً مستنيراً وتقدمياً ومتعدد الجنسيات في التعامل مع نوع من الأزمات يختلف اختلافاً بيناً عن تلك التي واجهناها في الحرب الباردة؟ أم ربما ستعكس نظرة أشد رجعية، أو ربما نظرة انعزالية للعالم.

كانت نظرة إدارة بوش الأول نظرة تقدمية، وهذا يضاف إلى رصيدها الكبير، وكانت القواعد الجديدة تؤكد على أهمية التعاون

الدولي والأمم المتحدة والائتلافات في التعامل مع صدام حسين، الذي غزا الكويت وهدد المملكة العربية السعودية، فتم قبولها قبولاً حسناً. وقدمت هذه القواعد وعداً بتعاون جديد وتوجه جماعي في التعامل مع الأزمات التي تزعزع الاستقرار... وهو وعد لم يتحقق تماماً.

أعقب حرب الخليج الأولى تدخلنا في شمال العراق لإنقاذ الأكراد. وأثناء جولتي في القيادة الأوروبية، كان علينا أيضاً التعامل مع كل الأزمات البسيطة والصعبة في آن واحد، في إفريقيا: كانت ليبيريا في جحيم، وكان علينا أن نقوم بإجلاء المدنيين في زائير وسيراليون، وكانت الفوضى لا تزال تعم لبنان. وكان رجال الفكر عندنا ينظرون إلى جزر البلقان ولا يروق لهم ما يرونه فيقولون: «إن يوغسلافيا مثل حقيبة سفر رخيصة وستتفكك خلال وقت قصير». وكانوا على حق.

في ذلك الوقت من منا كان واعياً حقاً بأن اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية تتكون من جمهوريات «منفصلة» حسب الهوية العرقية؟ لكن الآن الإمبراطورية تتحطم، وكان علينا أن ننظر إلى كل أنواع الدول الجديدة التي انشقت عن الاتحاد القديم، وجميعها دون مستقبل محدد على الإطلاق. أوكرانيا؟ بيللا روسيا؟ أوزبكستان؟ من كانوا؟ وإلى أين كانوا سيتجهون؟ والآن، باعتبار أنهم كانوا دولاً مستقلة، كان عليهم أن يحققوا هوياتهم. أما أوروبا الشرقية فقد أفلتت من سيطرة السوفيت، وتوجهت غرباً.

كان النظام القديم يتفكك بصور لا حصر لها، وفي ساحة معارك إدارة عمليات القيادة الأوروبية، كنت في قلب استجاباتنا للتفكك. ومن

هنا استطعت أن أرى بوضوح توجهاً انحدارياً متسارعاً كان منعكساً في المناطق التي تقع تحت مسؤولية القيادات الإقليمية الأخرى.

## صياغة نظام جديد

لم يكن كل زعيم أمريكي غافلاً عن التصاعد السريع للوقائع الدولية. وقد أدرك بعضهم أن ترك الأحداث لتسير في مجراها «الطبيعي» يعد مخاطرة كبيرة أو مقامرة. فبذلت جهود جادة وواعية لتشكيل أهم الظروف التي من شأنها أن تزعزع الاستقرار في الإمبراطورية السابقة، والتأثير فيها.

كان الجنرال جاك جالڤين (من الولايات المتحدة)، رئيس القيادة الأوروبية، جندياً ورجل دولة على غرار جورج مارشال، وأحد أكثر الرجال ذكاءً وفطنة، ممن كان لي شرف معرفتهم. وقد ثبت أن رؤيته الواسعة وعمق إستراتيجيته وبصيرته النافذة، وفن إدارة شؤون الدولة لديه ومقدرته العسكرية، أسس لا تقدر بثمن حين كنا نحاول مواجهة العالم المتغير الذي سببه انهيار السوڤيت.

كان إحساس جالڤين بأنه لابد أن تكون لنا اليد الطولى في إعادة تنظيم الاتحاد السوڤيتي السابق ودول أوروبا الشرقية الأخرى قد ألهمه أن يستميل قيادتها العسكرية واضحة الارتباك والتخبط، وذلك بعرض المساعدة والصداقة والتشجيع ـ وكان الهدف ضمني هو إثناؤهم عن التدخل في جهود تحويل الدكتاتوريات الشيوعية إلى نظم ديمقراطية.

أرسل جالقين ضباطاً أمريكيين برتب عالية (وكنت واحداً منهم) إلى موسكو ودول معاهدة وارسو لمقابلة نظرائهم من أوروبا الشرقية لمناقشة القضايا ذات الاهتمام المشترك، وعلى نطاق أوسع ليكونوا نماذج للتغيير الإيجابي. وكانت اللقاءات مثمرة بالنظر إلى حالة أصدقائنا الجدد المزرية. فقد كانت الجبهة العسكرية السوفيتية السابقة ـ في معظمها ـ بعيدة عن السياسة.

وفي هذه الأثناء، كان جالقين يطفئ الحرائق في منزله. فالمؤيدون لقضية إحلال السلام هناك في واشنطن كانوا يشككون في الحاجة إلى استمرار الناتو، وكانوا يقولون: «لقد مضى التهديد الأكبر إلى غير رجعة، فما الداعي لوجودنا العسكري في أوروبا؟ فليعد جيشنا إلى شواطئنا ولنقلص عدده بقدر واضح، ونخفض الإنفاق العسكري، ونكرس مواردنا للحاجات الملحة الأخرى».

كان هذا اقتراح معقول في ظاهر الأمر، لكنه في الواقع أخفق في فهم أن حلف الناتو نفسه قد تحول إلى نوع من المنظمات يختلف عن تلك المنظمات التي أعاقت التوسع السوفيتي غرباً لمدة خمسين عاماً ـ وأكثر منها جميعاً أهمية وأعظم أثراً. ولم يصبح الناتو مجرد حلف تم إنشاؤه للدفاع عن الدول المشاركة فيه، وإنما، كما كتبت في كتاب سابق لي هو «الاستعداد للمعركة»، «منظمة تتيح للدول القادرة المسؤولة التي تعمل فيها معاً عن قرب أن تحقق بالفعل أموراً هامة لم تكن لتتمكن من تحقيقها بمفردها. وفي هذا كانت تقدم نموذجاً تحتذيه بقية دول العالم. وصار الناتو نموذجاً لا يمكن أن يحل محله أي كيان آخر».

وقد نصح جالفين بتوخي الحذر ومراعاة كل الاعتبارات قبل إحداث أي تغيرات رئيسة في الناتو يمكن أن نندم عليها مستقبلاً؛ إذ كان هو وغيره يدركون قيمة الناتو بوصفه مؤسسة للتعاون والنظام. وكان هو وغيره يعرفون أن إسدال الستار على الناتو سيخلق قلقلات حول الجدارة الأمريكية بالثقة بين حلفائنا الأوروبيين. وكان هو وغيره يعرفون أن تدمير مؤسسة أسهل كثيراً من بناء مؤسسة.

وبرغم أنه كان يعرف أن تخفيض عدد بعض القوات أمر حتمي، كما كان يعلم ضرورة إعادة تنظيم الناتو، يظل يسأل واشنطن بإصرار: «كم عدد من نحتاجهم من الجنود؟ وما العدد الذي يمكن استقطاعه بأمان؟ وكيف ينبغي تنظيمنا من أجل النظام العالمي الجديد؟ وما المهام الجديدة التي يمكن أن نتوقع توليها؟ و: ما الغرض من الناتو؟ وما الذي يحتاجه ؟ وما الذي يجب علينا عمله لتوفيره؟» وعلى الرغم من جهوده، تم تخفيض أعداد الجنود في أوروبا بسرعة، وفي بعض الأحيان في عجالة شديدة، فانخفضت الروح المعنوية. ومع ذلك، ظل يدعو إلى الحذر والتعقل.

كان جالفين يعرف ضرورة إعادة تشكيل الناتو ليتماشى مع الظروف الجديدة، وكان يرى بوضوح ما الذي يجب أن يكون عليه ذلك التشكيل ـ وهو ما صار إليه الناتو في آخر الأمر: فقد اتسع فيما بعد ليضم دولاً عديدة من دول معاهدة وارسو السابقة، وتغيرت مهمته فيما بعد لتشمل عمليات خارج نطاقه الأوروبي المعتاد.

وقد أدرك، في النهاية، أنه حتى برغم أن انتهاء الحرب الباردة لم يخلّف وراءه دماراً مادياً واسع النطاق، كانت الأطراف «الخاسرة» في الحرب تحتاج برنامج مساعدات على غرار «خطة مارشال» التي بثت الحياة من جديد في أوروبا التي كانت تحتضر قبل خمسين عاماً.

كانت هناك أسباب إنسانية قوية لتعضيد هذا الجهد، وكانت شعوب الجبهة السوفيتية السابقة في حاجة ملحة للمساعدة لو أرادت أن تستعيد توازنها. لكن كانت هناك كذلك أسباب أمنية على نفس القدر من القوة: فعن طريق إعادة بناء المؤسسات التي دمرها سوء الحكم الشيوعي وعدم كفاءته ـ أو في بعض الحالات بناء مؤسسات جديدة من الصفر ـ كنا سنعزز الاستقرار ونجتث الظروف التي قد تهددنا لاحقًا. ولن ننسى أبداً أحداث ما بعد الحرب العالمية الأولى عندما أخفقت الدول الغربية في التعامل أو في تشكيل الظروف المضطربة التي أدت بصورة مباشرة إلى الحرب العالمية الثانية.

تسلم جيمس بيكر والسفير ريتشارد أرميتاج ذلك المشعل. وبحلول نهاية عام 1991، اتضح لبيكر أن النظام العالمي الجديد كان وهماً، وأقر بضرورة القيام بعمل ما لإيجاد نظام جديد أصيل في الاتحاد السوفيتي السابق. وكانت رؤيته في تحقيق ذلك هي إطلاق «خطة مارشال» الجديدة التي كانت حلم جالثين. كذلك أدرك بيكر أن هذه الرؤية ـ وهي مشروع عملاق بحق يطلق عليه «عملية بعث الأمل» لا يمكن تحقيقها أبداً من جانب واحد، حتى لو كان هذا الجانب هو الولايات المتحدة. كنا نحتاج دعم الدول المتقدمة الأخرى ومواردها.

وكانت هناك أسئلة عديدة أخرى تحتاج إجابات واضحة، وكذلك كان لابد من تفسير أمور كثيرة مشكوك فيها، قبل أن يؤتي هذا المشروع العملاق ثماره.

كانت الخطة تقتضي البدء ببساطة، على أن يلحق الآخرون بالعربة وهي تنطلق. وقام بيكر بإرسال أرميتاج إلى أوروبا لمباشرة الجهود. وأرسلني الجنرال جالفين إلى أرميتاج لتقديم دعم القيادة الأوروبية لهم.

وصل أرميتاج ـ خريج الأكاديمية البحرية الذي خدم في القوات الخاصة لبعض الوقت، والبحار المحنك الذي شارك في حرب ڤيتنام ـ إلى هذه الوظيفة بعد مشوار مهني طويل في الحكومة في كل من وزارتيّ الدفاع والخارجية، حيث كان سفيراً واسع الصلاحيات (أي أنه «حلاَّل العُقَد» خبيراً دبلوماسياً وسياسياً وعسكرياً) وبرغم تشكك أرميتاج في البداية من وجودي في فريقه وشكه في دوافع القيادة الأوروبية في إرسالي، أظهرت حسن النية بسرعة بتجهيز الآلات اللازمة للعملية وجعلها تتحرك بسرعة وكفاءة.

في أول الأمر كان ثمة خط تموين جوي لنقل الغذاء والأدوية وغيرها من المؤن إلى الجمهوريات السوفيتية السابقة. وقد جاءت معظم هذه المواد التموينية من مخزون تم تجهيزه مسبقاً؛ كنا قد خبأناه منذ وقت طويل في مواضع آمنة عبر أوروبا الغربية لاستخدامه في حالة حدوث حرب طاحنة لم تحدث قط.

وبمرور الوقت، وحين اتضح لأرميتاج أنني لديّ مثله خبرة سياسية وعسكرية ودبلوماسية، صرنا صديقين.

بدأت «عملية بعث الأمل» رسمياً عام 1992. ومنذ ذلك اليوم وحتى انتهاء العملية، حلقت أنا وأرميتاج عبر أنحاء أوروبا والاتحاد السوفيتي السابق ـ نتعامل مع الناتو والاتحاد الأوروبي، ومع القيادة الروسية ومع الموظفين المحليين، ونقوم بالتنسيق وتقييم النجاح والفشل.

استمر الجسر الجوي الإنساني قرابة شهر، قمنا خلاله بتوصيل 2100 طناً من المؤن اللازمة لواحد وعشرين موقعاً مختلفاً في جمهوريات متعددة. واستمر تكليفي بالعمل في «بعث الأمل» في الشهور الثلاثة التالية، وازدادت مشاركتي لأرميتاج في الأنشطة الاقتصادية والسياسية المتصلة بعملنا لصالح العملية. وفي غضون ذلك، كان أرميتاج يعمل بلا توقف لتحقيق الأهداف التي وضعها الوزير بيكر للمشروع... حتى بعدما اتضح أكثر أن الرؤية لن تتحقق. ولم تكن الدول المتقدمة الأخرى مهتمة بحضور الحفل، فإن عدم وجود دمار مادي واضح بعد الحرب الباردة، والشعور بالبهجة الذي سببه تحقق السلام فجأة، والرغبة التي يمكن تفهمها في أن تستخدم هذه الدول مواردها التي رفعت عنها القيود منذ عهد قريب من أجل شعوبها، جعلت الدول الأخرى لا تبالي بالبرنامج متعدد الأطراف الذي تأسس بتأثير أمريكي لمساعدة الأعداء السابقين. لم تكن الحاجة واضحة، ولم يكن ذلك وقت الكل في واحد والواحد في الكل، كان

وقت أرادت فيه الدول المنهكة أن تنظر إلى الداخل وتضع أولوياتها. وبعد ذلك مباشرة، كان على الألمان أن يدفعوا ثمن إعادة وحدتهم. وحتى بعد مضيّ خمسة عشر عامًا، لم يفيقوا من الصدمة بشكل كامل بعد.

إن إخفاق «بعث الأمل» في استثارة الدول الأخرى والمنظمات الدولية (مثل الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي) سيظل دائماً فرصة لم تغتنم كما يجب. فلو أنه بدأ بصورة ناجحة لكان من الممكن تجنب الاضطرابات وعدم الاستقرار التي أضرت بروسيا لاحقاً ضرراً بالغاً، كما أضرت بالجمهوريات المنفصلة ويوغسلافيا وغيرها من الدول.

## العاصفة الكاملة

خلق انهيار الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة من بعده فرصة لتشكيل نظام جديد، وصياغة مجموعة جديدة من القواعد، وبيئة عالمية جديدة. كما هيأ الظروف لحشد قوى جديدة ـ تتمركز حول ما يسمى الآن الكوكبية، لكنها تتجاوز ذلك ـ لتسارع بالاندفاع نحو الفراغ الذي أعقب انهيار بنية القوة لدى أحد القطبين، وفقدان الطرف الباقي الاهتمام بالتأثير على الأحداث بصورة أساسية. بعض هذه القوى الجديدة قد تثبت تأثيرها الإيجابي، في حين تثبت قوى أخرى بالفعل أنها خطيرة ومدمرة. وكانت كافة هذه القوى تدور في كل مكان بلا ضابط ولا رابط. وقد تجمعت واكتسبت قوة وامتدت في كل الجهات غير المتوقعة، وصارت عاصفة كاملة.

## الكوكبية

نمت الكوكبية ـ وهي تكامل الاقتصاديات والمجتمعات في أنحاء العالم ـ بصورة أسرع مما يمكننا قياسها، وتفجرت في كل تفاعل تقوم به شعوب العالم. وقد أحبها البعض، ولم يحبها البعض الآخر.

فبالنسبة لمؤيديها تعد الكوكبية بنمو اقتصادي وتجاري في كل أنحاء العالم، وتطور تكنولوجي متصاعد، وإنتاجية تزداد زيادة مطردة، وسهولة أكبر في النقل والتحرك، ومسوغ أكبر للإنتاج والخدمات الكوكبية، وقدرة أكبر على تأسيس نظم كوكبية تكفل العدل والتوازن والرخاء المشترك والعدالة المتساوية والإشراف المسؤول على موارد الأرض.

وبالنسبة لمعارضيها، تهدد الكوكبية بتزايد التفاوت الاقتصادي، والتدهور البيئي، واستغلال العالم الثالث، واستنزاف الموارد بلا حساب، وفقدان الهوية الثقافية والقومية، ونشأة كيانات لا تنتمي لدول ولا تخضع للسيطرة.

من منهم على حق؟ من يدري؟

لا يمكنني الجزم. ففي المستقبل وحده الإجابة الشافية.

لسنا على يقين إلى أين تؤدي بنا الكوكبية، لكن يمكننا أن نرى آثارها بوضوح وذلك في شبكات المعلومات والشركات عابرة القارات والمحاكم ذات السلطة القضائية الدولية والأنظمة النقدية الجماعية وتحويلات الوظائف والإنتاج على المستوى الدولي والهجرات الكوكبية والتشتت

الكوكبي والتنافس في أنحاء الكوكب على الموارد التي تشهد تناقصاً مستمراً، والأعداد المتزايدة من المنظمات التي لا حدود وطنية لها.

هل ينبغي أن نقلق؟ هل تهدد هذه القضايا أمننا القومي، هل تهدد بفقدان هويتنا القومية، والسيطرة على مصيرنا القومي؟ إنها أسئلة مزعجة بالنسبة لقوة عظمى وكذلك لدول العالم الأول الأخرى، ويجب على الزعماء الحكماء أن يتقدموا إلى المنصة ويجيبوا عنها.

إن هذه الأسئلة أكثر إزعاجاً للعالم الثالث، فدول العالم الثالث تقع على طرف سوط النظام... أو عدم النظام العالمي الجديد.

والكوكبية ليست قوة بسيطة مفردة تؤدي الأداء نفسه في كل مكان؛ إنها مجموعة حاشدة من القوى (كثير منها سبقت انهيار الإمبراطورية السوفيتية) وصلت إلى دولة مختلفة وشعوب وثقافات بطرائق متباينة وإيقاعات متفاوتة ـ أي بمعدلات مختلفة من التغير. ويكاد يكون كل فرد في هذا العالم قد تأثر بالكوكبية، لكن بعض الشعوب والثقافات غمرتها التغيرات بصورة أسرع مما يمكنها أن تتكيف معها.

وحتى هذه العناصر والتوجهات التي تبدو جيدة لها جوانب مزعجة.

خذ على سبيل المثال الشركات عابرة القارات ـ وهي مؤشر مهم على ظهور الكوكبية. إن هذه الشركات تطور الكفاءة وتحسن الإنتاجية، وتنقل المصانع والعمالة المستجلبة إلى أجزاء من العالم يكون الإنتاج فيها أرخص سعراً. وهكذا ينتشر التحديث التكنولوجي بسرعة في أرجاء العالم ـ هذا أمر طيب. تصنّع مكونات المنتج هنا أو هناك أو في

أي مكان، ويتم تجميعها في مكان آخر، وربما تسوّق في مكان ثالث. وكل هذا يعني أن يدفع المستهلك سعراً أقل ـ وهذا أمر مرغوب.

لكن هذه الأنواع الجديدة من الشركات مسؤولة أمام من؟

حرر انهيار النظام العالمي القديم الشركات من صور متعددة من سيطرة الدولة، بما في ذلك هويات هذه الشركات باعتبارها مؤسسات أعمال تجارية لها مكاتب رئيسة في دول معينة. فحتى لو كان لشركة ما «مكاتب رئيسة» في نيويورك أو لندن أو طوكيو أو سول، فهل تعتبر هذه الأعمال التجارية الكوكبية نفسها شركات أمريكية؟ أم بريطانية؟ أم يابانية؟ أم كورية؟ ما القيود التي يمكن أن تضعها دول منفردة عليها إذا كانت هوياتها المشتركة منتشرة في كل مكان؟

هل هذا أمر طيب أم سيئ؟

إذا كانت التجارة والإنتاج والارتفاع المستمر لقيمة الأسهم، وغيرها من الفوائد الاقتصادية هي أهدافنا الوحيدة، فإن الشركات عابرة القارات لا شك جيدة. لكن هل يمكن أن نحسب العواقب التي تسفر عنها قدرة شركة عالمية ما على تجنب الإشراف الوطني أو الخارجي عليها؟ إن الدول التي تتمتع بسيادة القانون، وإجراءات قوية لحماية المستهلك قد لا تعاني من تبعات خطيرة تجرها الشركات الكوكبية. لكن ما آثار عملياتها في الدول عندما تكون هذه المؤسسات ضعيفة. فهل ينبغي علينا أن نمنح السلطة لمنظمات دولية كي تضع رقابة وقيود على هذه الشركات؟

إننا في العالم الصناعي لم نصل لفهم أسئلة مثل هذه إلا عرضاً، وتطرح الكوكبية أسئلة عديدة مثلها. ولا يزال يستعصي على فهمنا كيف ستؤثر الكوكبية علينا وعلى غيرنا. إننا نعلم أنها تغير النظام العالمي الجديد، ونعلم أنها تغير التوازن الاقتصادي في العالم، لكننا لم نفهم بالضبط كيف نتحكم فيها، وكيف نحمي أنفسنا من جانبها السيئ، ولا كيف نشجع جانبها الطيب ونرتقي به.

والنتيجة ـ وقوع ارتباك أشد في وقت نسعى فيه جاهدين لفهم انعدام النظام العالمي الجديد.

**ضعف السيادة الوطنية**

حسب القواعد والأعراف القديمة، لم يكن ثمة تفاعلات بين الشعوب إلا عبر الدولة الوطنية. كانت قضايا السيادة هي المسيطرة تماماً، وكانت القومية هي الأيديولوجية الأقوى والأنشط في التاريخ الحديث. وقد تأسست الأمم المتحدة لتدير القومية، وأنشئت للحد من الخلافات بين الدول القومية، لكن أيضاً لحماية سيادة تلك الدول القومية ذاتها، ولتخضع نفسها لتلك السيادة.

أما الآن فلم تعد الدول القومية والسيادة الوطنية تتمتع بالقوة أو التميز الثقافي والفعلي... ولم تعد مثل كرات البلياردو تضرب كرات البلياردو الأخرى ـ كما كان يعتقد فيما مضى ـ بل لقد أصبحت أشبه بالبشر أنفسهم: تحيا وتتحرك وتتنفس داخل بيئتها فقط. ولكن لا يمكن أن تعيش الدول بمعزل عن البيئة الكوكبية، ولا تستطيع عزل نفسها عن القوى التي تزداد هيمنتها باستمرار في هذه البيئة الكوكبية.

أصبحنا على نحو مفاجئ في عالم ربما لا يهتم دائمًا بالاستقلال القومي ولا بالشكل الانعزالي للوحدة القومية. فمنذ انتهاء الحرب الباردة قامت الأمم المتحدة والناتو وغيرهما بعمليات متعددة لحفظ السلام وتدخلات أخرى في الدول «ذات السيادة» في البلقان والعراق ورواندا والكونغو والصومال، وفي تيمور الشرقية (إندونيسيا). مثل هذه التدخلات لم تكن واردة عملياً أثناء الحرب الباردة بسبب احترام السيادة الوطنية، أما الآن فقد صارت شيئاً معتاداً لأن السيادة لم تعد القوة الفاعلة كما كانت من قبل.

في عصور سابقة، كانت السيادة الوطنية هي التي تقرر كيفية تعريف النصر أو الهزيمة في الحرب. والآن صار هذا التعريف أكثر تخبطاً.

في القرن العشرين، استطعنا هزيمة القوات العسكرية لدول ذات سيادة، وتوقعنا أن نملي شروطنا، وذلك يعد انتصاراً، أما اليوم فلا. فعلى عكس اليابان وألمانيا، اللتان قبلتا الهزيمة واتفاقيات الاستسلام ومغادرة المواقع، فإن شعوب الدولة المهزومة اليوم لا تقبل الاستسلام ولا تعترف به ولا تغادر مواقعها، ولا تطبق القواعد والأعراف. فالدول القومية ذات السيادة ـ دولنا ودولهم ـ لاتسأل متى تنتهي الحرب ولا كيف. ولم يعد ما يحدد الانتصار هو أن الدولة المنتصرة تملي شروطها على الدولة المهزومة. فهناك أبعاد أخرى دخلت في اللعبة.

فبالإضافة إلى الشركات الكوكبية، نشأت عدة كيانات أخرى غير مقيدة بدولة واحدة وتكاثرت. وصارت كثير منها بمثابة مصادر قوة رئيسة، ولها تأثير عالمي. وقد ظهرت هذه المنظمات في أشكال وصور

عديدة ـ بعضها طيب وبعضها سيئ والبعض الثالث في مكان ما بين هذا وذاك. وعدد هذه المنظمات في تصاعد مستمر ولها تأثير متزايد.

وهناك الإرهاب الدولي والشبكات المتطرفة العنيفة التي وصلت إلى العالمية، وصارت الجريمة المنظمة الآن كوكبية أيضاً. فشبكة كالي كرتل وشبكة المافيا الروسية وغيرهما من الشبكات الإجرامية لها موارد وأصول تجارية وقدرات تتجاوز معظم الدول الوطنية. وقد نجحت القاعدة في إلحاق أضرار بالأراضي الأمريكية أكبر مما فعل أعداؤنا في الحرب العالمية الثانية. كما نجح القادة العسكريون في بسط سلطانهم وإملاء أوامرهم على الحكومات المستضعفة أو في ملء الفراغ الذي نشأ بعد انهيار دول في مناطق متعددة من العالم.

تتمتع الكيانات السياسية الدولية والإقليمية والإقليمية الفرعية مثل الاتحاد الأوروبي ومنظمة الآسيان (منظمة دول جنوب شرق آسيا) ومنظمة الوحدة الإفريقية بدرجات متفاوتة من التأثير والنفوذ. فالاتحاد الأوروبي ـ الذي يختلف تأثيره عن الدول المفردة المشتركة فيه ـ له دور رئيس في العالم.

أما المنظمات غير الحكومية فأعدادها في ازدياد ـ وهي لا تقتصر على تلك التي تقدم الغذاء والدواء. فبعضها يعمل مع الدول للتوسط في الصراعات العنيفة وبناء، أو إعادة بناء، مؤسسات قومية حيوية في مجالات مثل التعليم والرعاية الصحية والعدالة والأمن. فمحكمة العدل الدولية تفصل في قضايا قانونية دولية. وتتجاوز هذه المنظمات وما يماثلها قدرة معظم الدول القومية في الموارد والتأثير والرقابة.

وقد نمت المنظمات القائمة على أساس ديني، وحلت الأيديولوجيات الدينية القوية محل الأيديولوجيات السياسية بوصفها أساس لحركات متعددة حول العالم. لقد رفض ستالين سلطة البابا متسائلاً: «كم فرقة عسكرية لديه؟» لكنني أتساءل هل كان ستالين سيسحب تلك الملاحظة في ضوء الدور الذي لعبه البابا يوحنا بول الثاني في انهيار الاتحاد السوفيتي.

**الحدود غير المانعة**

لن تذوي الدول القومية على الفور، لكن قدرتها على السيطرة أو التأثير على الأحداث بصورة منفردة داخل حدودها وخارجها تتضاءل. فلم تعد الدول تسيطر على الجوانب الحيوية في حياة الشعوب، إذ إن هوية الدولة القومية، باعتبارها المصدر الأساس للتفاعل الاجتماعي، آخذة في الضعف. ففي الماضي، كانت الدولة القومية تسيطر على المعلومات وتنقحها، وكانت هي المصدر الأساس لوسائل الاتصال ونظم المعلومات ووسائل الإعلام. ولم تكن هناك طريقة مباشرة لتواصل الناس مع بعضهم إلا على أساس فردي شخصي. و ذلك كله في طريقه للزوال الآن، فالمعلومات تتدفق عبر شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) ووصلات الأقمار الصناعية ولا يمكن التحكم فيها تحكماً تاماً.

أصبحت الحدود تحمل معنى أقل كثيراً مما كانت تحمله في الماضي، فالأسوار أو الجدران التي كانت تجعل الناس ذات يوم بعيداً وفي مأمن، ظهرت فيها الآن شقوق واسعة. أما الحدود الطبيعية ـ

المحيطات والصحارى وسلاسل الجبال ـ فلم تعد معوقاً للمهاجرين الذين يبحثون عن أوطان جديدة. كذلك فإن أمراضاً مثل الإيدز وحمى غرب النيل، والأنواع الأشد فتكًا من الأنفلونزا، والمجرمين والإرهابيين، وكل أنماط الأفكار والتعاليم والأيديولوجيات المتطرفة، وأسلحة الدمار الشامل، وفيروسات الحاسب الآلي... تنتقل كلها بسرعة وسهولة من بلد إلى بلد. وقد انتقل عدم النظام والفوضى إلى أماكن لم تكن تعنينا عبر البحار وأصابت أناساً وأماكن لها عندنا أهمية بالغة.

عندما تكون عندي مشكلة في الحاسب الآلي، أتحدث إلى أحد خبراء الدعم الفني في الهند، وهو يتحدث الإنجليزية الأمريكية بطلاقة، ويسمي نفسه سامي وليس سانجاي. كان حاسوبي يمتلأ برسائل محتالين من نيجيريا يطلبون المال، وصارت مراوغة الرقابة الحكومية أسهل كثيراً. فإن كانت حكومتي ترغب في منعي من قراءة بعض المطبوعات أو مشاهدة بعض الأفلام، فإنني أنقلها إلى حاسوبي من وصلة الأقمار الصناعية.

إننا نعيش في عالم تزداد فيه مشاركة الدخلاء في مشكلات الآخرين... ذلك لأن مشكلاتهم تشمل الدخلاء على نحو مطّرد، فالمشكلات ليست مشكلاتك أنت وحدك، وإنما مشكلاتنا نحن أيضاً.

أذهب إلى بلد استوائي وأقول لهم: «كفوا عن قطع أشجار غاباتكم المطيرة».

فيسألونني: «وما دخلك في هذا؟ إنها غابتنا».

«لأنكم عندما تقطعون أشجار غابتكم يتغير المناخ حيث أعيش».

أو أقول: «توقفوا عن إساءة معاملة شعبكم».

«وما شأنك بهذا؟»

«يكون شأني عندما يبدأ مواطنوكم في الطفو عند شواطئ بلادي».

أو عندما يبدأ الناس في بعض البلدان في إلقاء اللوم عليّ بسبب مشكلاتهم، لأنني أساند حكوماتهم المستبدة. وهناك عناصر أشد تطرفاً قد تقوم بتفجير المنتجعات التي يقضي فيها الأمريكيون أجازاتهم.

قد نكون حريصين على هذه الحكومة باعتبارها أحد حلفائنا، لأن ذلك في مصلحتنا. لكننا يمكن أيضاً أن نقول لتلك الحكومة أن «ساعدينا أيتها الصديقة، حققي الديمقراطية، وأعط اهتماماً أكبر لحقوق الإنسان وعمليات الدمقرطة. فهذا خير لك ولنا».

عندئذٍ يصبح السؤال، كيف نحقق الأمن لأنفسنا في هذا العالم الذي يتشكل أمامنا؟ هل يمكن تحقيقه بإيقاف كل التهديدات والمشكلات عند حدودنا؟ أم أننا سنتبع مساراً أكثر حكمة بالتعامل مع الاضطرابات والتهديدات حيث تنشأ؟

سيتجه الأمريكيون إلى العزلة بطبيعتهم. وسيأملون دائماً أن يقيموا حدوداً يصعب اجتيازها. فإننا نحب أن نردد: «نحن قادرون على حماية أنفسنا من الاضطرابات، فكيف يمكن أن ندافع عن حدودنا؟».

يريد الأمريكيون منظومة حرب النجوم الصاروخية الدفاعية ويريدون الأمن للوطن. نريد أن تفتش كل حاوية تبحر في كل ميناء. نريد أن نجمد تأشيرات الدخول حتى ندفع أي خطر يأتي من زيارات أو هجرات محتملة. «حسناً، فإذا كانت مشكلات العالم تطفو عند شواطئنا، فلابد إذن أن نتخذ الإجراءات اللازمة لضمان عدم حدوث ذلك فيما بعد».

ولن يُجديَ هذا نفعاً على المدى الطويل. فإذا كان خط دفاعنا الرئيس هو حدودنا، فإن الأشرار سيخترقونها ويصلون إلينا. فالأسلحة النووية أو البيولوجية أو الكيميائية التي تقتل مدينة بأسرها، يمكن الآن وضعها في حقيبة ظهر صغيرة ونقلها إلى بلد ما بطرائق متعددة. وهناك عدد كبير من الأسلحة لا يتطلب نقلها عبور الحدود. إذ يمكن للأعداء إرسال توجيهات لاسلكية لصنعها من أي مكان في العالم. بل حتى يمكنهم إلحاق أضرار خطيرة بنا بدون استخدام وسائل عنيفة، باختراق نظم المعلومات لدينا وتدمير قواعد البيانات الخاصة بنا، ويمكنهم أيضاً إحداث فوضى في أي عدد من الأنظمة الحيوية ـ البنوك أو محطات الكهرباء أو المراقبة الجوية.

إننا لن نمنع الأمراض من الانتشار عبر حدودنا. ولن نمنع الخراب البيئي من الانتشار هنا ما إن يبدأ هناك. فلا يمكننا بناء فقاعات حديدية حولنا.

وبرغم أن المسار الدفاعي جذاب، إلا أنه بلا جدوى.

## تغير الهوية

من أنا؟

يمكن أن يسأل هذا السؤال شخص كردي عراقي، أو شخص يقيم في حي مسلم في أوروبا، أو عامل مهاجر من أمريكا اللاتينية في الولايات المتحدة، أو موظف هندي في فندق في الشرق الأوسط.

فبالنسبة لهم ولملايين كثيرة غيرهم هناك، لن تكون الإجابة عن هذا السؤال حاضرة. فإن بحثهم عن الهوية ـ أو تأكيد هويتهم ـ سيجاب عنه بتعبيرات تختلف تماماً عن تلك التي تم تفسيرها في القواعد القديمة.

ففي وقت ما ـ وبخاصة في أوروبا ـ كان تعريف الدولة القومية بأنها المجال الجغرافي لقبيلة أو جماعة عرقية معينة ـ إيطاليين، ألمان، فرنسيين، بولنديين، مجريين. وفي النظام القديم، كانت الحروب بين الأمم الأوروبية حروباً بين القبائل ـ الألمان ضد الفرنسيين، اليونان ضد الأتراك. لكن في مناطق عديدة من العالم، وحتى في أوروبا، ربما لم تعد الهويات العرقية الآن ترتبط بالحدود الجغرافية، وربما لم يعد الناس يتخذون هوياتهم من الدول القومية حيث يقيمون؛ فقد تفجر الشتات المجتمعي، وأصبح الذوبان في المجتمع أشد صعوبة.

لقد تضاءلت الهويات القومية لصالح أشكال الهوية الأخرى. ويصدق هذا بصفة خاصة في حالة الدول التي نشأت بصورة اصطناعية نتيجة الاستعمار. فقبل العراق التي أنشأتها بريطانيا، لم

تكن هناك أمة «عراقية» ولا شعب «عراقي»، ولم تكن الهوية «العراقية» موجودة قبل ذلك. ويوجد الموقف نفسه في دول إفريقية عديدة. فكم من النيجيريين يعتبرون أنفسهم نيجيريين أولاً ثم منتمين إلى قبائل الإيبو أو اليوروبا في المقام الثاني؟ وكانت هذه الدول التي نشأت اصطناعياً ضعيفة ومضطربة منذ نشأتها.

ليس بالضرورة أن يفقد الناس الأشكال القديمة لهوياتهم، لكن أشكال الهوية تتغير كما تتغير تركيبة المجتمع أيضاً، وكذلك الجوانب الأهم في تحديد الناس لهوياتهم ـ والطريقة التي ينظر بها الناس إلى أنفسهم ـ تتغير: «فما الأهم بالنسبة لي؟ بلادي؟ عرقي أو جنسي؟ ديانتي؟».

ما معنى أن تكون فرنسياً؟ إن ملايين من مسلمي شمال إفريقيا فرنسيون الآن، لكنهم نادراً ما يكونون فرنسيين بنفس معنى فرنسية جاك شيراك أو فرنسية جولييت بينوشيه.

ما معنى أن تكون أمريكياً؟ إن ملايين من الشعوب الناطقة بالأسبانية والبرتغالية من أمريكا اللاتينية ـ وهم عرقياً سكان أمريكا الأصليين ـ أصبحوا الآن مواطنين أمريكيين، ويمثلون ـ أو سيمثلون قريباً ـ أغلبية سكان الغرب والجنوب الغربي عندنا، فالهنود يستردون البلاد.

عندما كان المارشال تيتو يرأس يوغسلافيا كان يسيطر على البلاد بأسرها، وربما كان الناس يعتبرون أنفسهم بالفعل يوغسلاف... رغم

أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم أيضاً صرباً وألبان وبوسنيين، أو مسلمين ومسيحيين أرثوذكس، أو كاثوليك. لكن بعدما رحل تيتو انهار النظام القديم، وزالت القبضة الحاكمة، ولم يعد هناك من يعتبر نفسه يوغسلافي فصار الوضع فجأة أن هذا الشخص صربي وهذا الشخص ألباني وذلك الشخص من البوسنة، أما ذلك الشخص فمسلم أو كرواتي أو أرثوذكسي أو كاثوليكي. وأصبحت قضايا الهوية جوهرية في الحركة السياسية... الهوية الدينية والهوية العرقية والهوية القبلية.

وفي العراق حدث شيء مشابه. ففي ظل حكم صدام كان كل فرد في العراق عراقياً، ولم يكن لهم خيار في ذلك... برغم أنهم أيضاً كانوا سنيين أو شيعة أو كلدانيين أو أكراد أو تركمانيين أو أشوريين أو مسيحيين. والآن بعدما أسقطنا نظام صدام، هل يمكن لأحد أن يصف كل فرد في العراق بأنه لا يزال يحمل هوية عراقية؟

لقد غزونا العراق معتقدين أن العراقيين جميعاً سيستمرون في اعتبار أنفسهم عراقيين. ودخلنا هناك لتحرير كافة العراقيين باعتبارهم عراقيين. لكن انتهى الأمر إلى أنهم لا يعتبرون أنفسهم عراقيين؛ بل يريدون التحرر بوصفهم شيعة أو أكراداً. وصارت الأغلبية السنية ترفض التخلي عن المزايا والسلطات والهيمنة التي سيطروا بها لمدة طويلة على كافة العراقيين الآخرين.

وفي وسط آسيا، بعدما تخلص الأوزبك والكازاخستانيون والتركمانيون والقيرغيز والطاجيك من نير الحكم السوفيتي، كانت

أولويتهم الأولى هي العودة إلى لغاتهم وتقاليدهم الخاصة؛ برغم أن قلة من سكان أواسط آسيا لديهم فكرة واضحة عما تكون هوياتهم القومية بالضبط.

عندما زرت أوزبكستان، كان الأوزبك يبحثون في تاريخهم عن دليل على هويتهم الأوزبكية، وقاموا ببناء متاحف للاحتفال بماضيهم المجيد، وزعموا أن تيمورلنك أحد أجدادهم. لكن تيمورلنك لم يكن زعيمًا أوزبكياً؛ وإنما كان زعيمًا مغوليًا، من نسل الغزاة والمحتلين الذين استعبدوا الشعب الأوزبكي.

هل يفكر المسلمون في أنفسهم بصفة أساسية حسب هويتهم القومية أم العرقية أم الدينية؟ إن بعضهم يفكر بطريقة والبعض الآخر يفكر بطرائق أخرى.

فلماذا يقرر شاب سعودي الذهاب لتفجير نفسه في كشمير بسبب قضية بين الباكستانيين والهنود؟ ولماذا يذهب شاب سعودي آخر لقتال السوفيت في أفغانستان؟ أو لقتال الأمريكيين في العراق؟ إنهم يشعرون بانجذاب للهوية الدينية التي تطغى على هويتهم القومية.

إننا في أمريكا نميل لتعريف المرء بأصوله العرقية ـ إيطالي، أمريكي لاتيني، أمريكي من السكان الأصليين، أمريكي إفريقي، باكستاني، أنجلوساكسوني (بروتستانتي أبيض). وفي أوروبا تعرّف المجتمعات المحلية حسب انتمائها الديني فيتحدثون عن تجمع إسلامي، وليس باكستاني بريطاني أو جزائري فرنسي أو مغربي فرنسي.

لي صديق أستاذ جامعي في بريطانيا ـ مواطن بريطاني له أصول عرقية باكستانية ويدين بالإسلام ـ يشعر بأن الأوروبيين يعززون الهويات الإسلامية لمجتمعات المهاجرين الذين جاؤوا من كافة أنحاء العالم. فالأوروبيون يصهرون هذا العدد الهائل والمزيج متعدد القوميات في بوتقة وحيدة ـ المسلمين. ما القاسم المشترك الذي يجمع الأيرلنديين الكاثوليك والإيطاليين الكاثوليك والألمان الكاثوليك والفلبينيين الكاثوليك وكاثوليك أمريكا اللاتينية، غير دياناتهم؟ وهل فرض هوية دينية عليهم في الولايات تجعل استيعابهم في المجتمع أصعب؟ هل تعزيز الهوية الدينية أو تشجيعها يزيد المشكلات في بيئة اليوم المشحونة؟ فعندما يجعل الأوروبيون ـ عمداً أو بغير عمد ـ المساجد مركزاً رئيساً لتجمع كل من تصادف أنه مسلم، فهل هم بذلك يخلقون ظروفاً تتيح للأئمة الراديكاليين تأثيراً أكبر بكثير مما يمكن أن يكون لهم في ظروف مغايرة؟

## الهجرات الجماعية

إن اضمحلال الدولة القومية وانهيار الحدود القومية الآمنة قد كشف الغطاء عن القيود المعتادة المفروضة على الهجرات الشرعية وغير الشرعية. ولنعيد سرد إعلان «الخطوط الجوية الجنوبية الغربية»: «أنت الآن حر في الانطلاق حول العالم» فملايين الناس في أرجاء الدنيا يتركون أوطانهم ـ إما بسبب وفرة الرزق في مكان آخر، أو ربما، وهذا هو الأرجح، لأن الحياة في الوطن لا تطاق.

الطبيعي أن يرغب الناس في الحياة حيث توجد أسرهم وجذورهم. والطبيعي أيضاً أن اجتثاث الجذور والتخلي عن الحياة القديمة والأسرة يتطلب شخصاً يتمتع بدافعية قوية. ففي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وأوائل القرن العشرين، كما تقول الأسطورة القومية الأمريكية، كان الدافع وراء الهجرة هو الأحلام والجسارة.

أما اليوم، فالأرجح أن يخاطر الناس بالانتقال بسبب الفوضى أو الاضطرابات أو العنف في أوطانهم والتي تجعل حياتهم لا تطاق.

لكن مخاطر الانتقال عظيمة.

فكثير من الناس يموتون أثناء محاولتهم اجتياز صحراء سونورا من المكسيك إلى الولايات المتحدة. وكثير منهم يموتون أثناء محاولتهم عبور البحر من هاييتي أو كوبا إلى الولايات المتحدة، أو من شمال إفريقيا إلى إيطاليا أو من آسيا إلى أستراليا.

وما إن يصل المهاجر إلى أمريكا أو أوروبا ـ سواءً عن طريق هجرة مشروعة أو غير مشروعة ـ ينقل، في أغلب الأحوال، الاضطرابات والفوضى المستوطنة في العالم الثالث إلى العالم الأول. وبهذا يضعون أعباء على أمن أمة أخرى بنظم اجتماعية وهيئات قد لا تكون مهيئة للتعامل مع مثل هذه الأعباء. وهناك قضايا إنسانية وقضايا متعلقة بالتسامح الديني وقضايا سياسية (إذ يمكنهم الانتخاب في آخر الأمر، ويحتاجون خدمات تكلف أموالاً). فالمهاجرون الإسلاميون المتطرفون يقومون بإنشاء مساجد وإحضار زعماء دينيين يشجعون الراديكالية والعنف.

في الماضي، كان المهاجرون إلى الولايات المتحدة عادة يهاجرون إلى مجتمعات المهاجرين الموجودة بالفعل. فقد أنشأنا مستوطنات ـ مجتمعات إيطالية ومجتمعات أيرلندية ومجتمعات يهودية وأخرى ألمانية ـ وكانت في آخر الأمر خطوة أولى للاستيعاب داخل مجتمعنا.

واليوم في مدن مثل نيويورك أو لوس أنجلوس، هناك مجتمعات روسية ومجتمعات صينية ومجتمعات عربية. فهل ثبت أن ذلك ـ كما كان في السابق ـ خطوات أولى في استيعاب هؤلاء خلال جيل أو اثنين؟ من الصعب الجزم بذلك، لكن يمكننا ملاحظة إشارات مشجعة في أماكن مثل نيويورك، فهناك شابات من المسلمات المعتدلات اللائي يرتدين سراويل فضفاضة وقمصاناً كتبت عليها عبارات ترمز لعلامات تجارية أمريكية عادية مثل «يوجا» و «بيلاتس».

إن لبلادنا تراثاً في دمج المهاجرين في المجتمع، أما أوروبا فلا. ففي الماضي عندما كنت تفكر في غرب أوروبا أو شمالها كان أول ما يتبادر إلى ذهنك هم السكان البيض، أما الآن فإن المجتمعات التي تقتصر على البيض تعد أمرًا عفا عليه الزمن. لكن ما تأثير مجتمع أكثر تنوعاً وليس لديه قبيلة مركزية مهيمنة ولا الهوية أو التمييز القبلي الذي كان معمولاً به من قبل في مجتمعات كهذه؟ وقد نتج عن الهجرات إلى أوروبا من المستعمرات السابقة احتكاكات لا يتعامل الأوروبيون معها بطريقة صائبة؛ فمعدلات المواليد الأوروبيين تتضاءل، والاقتصاد الأوروبي في حاجة إلى عمالة، لكن مجتمعاتهم

تنفق وقتًا طويلاً في معالجة الاختلافات الثقافية والدينية التي تجلبها العمالة معها.

من ناحية أخرى، لو أن الظروف كانت أقل وطأة في أوطانهم، كان الناس سيبقون فيها. ففي القرن الماضي، هاجر من الهند أفضل سكانها وأشدهم ذكاءً وأرفعهم ثقافة. لكن مع التوسع في الإنتاج، وتزايد الوظائف الجيدة المتاحة، قرر الأفضل والأشد ذكاءً منهم البقاء في الوطن. وبرغم أن استيراد العمالة الهندية أصبح مشكلة بالنسبة للاقتصاد الأمريكي ولحالة التوظيف في أمريكا، فإن الهند صارت أكثر استقراراً وأمناً وازدهاراً مما كانت عليه منذ بضع سنوات مضت.

إن من يخفق في فهم معنى هذه التغيرات، وما تسببه للبلاد والمجتمعات، سيضيع في هذا العالم. وأي امرئ يحاول تطبيق قواعد منتصف القرن العشرين على هذه المشكلات سيجد نفسه ضائعاً ومشوشاً، ولا حيلة له في التعامل معها.

**دول فاشلة**

إن أخبار الدول المنهارة والدول التي على شفا الانهيار هي دائماً أخبار سيئة.

فهذه الدول تسبب الحروب والتشرذم والفوضى الإقليمية، ويمكن أن تصبح ملجأً للمجرمين بكل فئاتهم والسلاب والنهابين، وأمراء الحرب والكيانات المعادية الخارجة عن سيطرة الدولة والحركات المتطرفة، والشبكات الإرهابية التي يصعب الوصول إليها. كما أنها

يمكن أن تكون مصدرًا للهجرات الجماعية غير المشروعة، وبؤرة للمشكلات الصحية أو البيئية العالمية، وتطلق العنان للتطرف الديني أو الضغائن والأحقاد العرقية أو الدينية الرهيبة التي تنتشر متجاوزة حدودها الإقليمية، وينشأ عنها كوارث إنسانية على نطاق واسع.

إن عجز دولة ما قد يكون في مجالات قليلة وقد يكون عجزاً عاماً. وربما تتسبب هذه الاضطرابات في انهيارها، أو لا تتسبب في ذلك. وهناك دول تتعايش مع اضطرابات وتقاومها،وقد لا تنهار هذه الدول أو تفشل لكنها تكون دولاً ضعيفة.

وقد أصبحت قدرة دول هشة ضعيفة على البقاء في المحيط الحالي مشكلة أشد تعقيداً. فبعض الدول التي نشأت اصطناعياً منذ الحقب الاستعمارية تتفكك. وثمة دول أخرى لا تمتلك موارد طبيعية صالحة، ولا جغرافية متميزة، تجد صعوبة في البقاء. وهناك دول تعاني مشكلات داخلية خطيرة وانقساماً، لكنها تفتقر إلى الإمكانات اللازمة لحسم المواجهة مع القوى التي تعمل على تدميرها. وأصبحت تلك مشكلات كوكبية متصاعدة لا يمكن تجاهلها.

وقد تمخضت التغيرات التي ظهرت على الساحة عام 1989 ـ على أحسن تقدير ـ عن نتائج مختلطة على هذا الصعيد. فقد حققت بضعة مجتمعات وعوداً بظروف إنسانية وسياسية واقتصادية واجتماعية أفضل، في حين مر عدد كبير من المجتمعات بظروف عكس ذلك؛ إذ واجهت أوضاعاً سلبية مزعجة مثل زيادة مستوى الاستقطاب الاقتصادي (الأغنياء يزدادون غنىً والفقراء يزدادون

فقراً)، وإفساد البيئة وما نتج عنه من آثار مناخية مدمرة، والزيادة السكانية في مناطق تعجز عن تثبيت النمو الديموجرافي، والآثار المدمرة للزحف المدني على المناطق الزراعية المتفشي في العالم الثالث. ونادراً ما تجد مدن العالم الثالث، التي يتجاوز سكان كل منها الملايين، بنية تحتية مادية صالحة أو بنية اجتماعية وسياسية سليمة، ويتسبب ذلك في كافة أنواع الفساد الاجتماعي والصحي والبيئي.

حتى الأمور التي تبدو جيدة قد تتولد عنها آثار سلبية. فقد أتاح لنا عصر المعلومات سهولة غير مسبوقة في الحصول على المعلومات وقدرة على نقلها بسرعة إلى كل أنحاء الكرة الأرضية. لكن تلك المعلومات، لا تتوافر فيها درجة أساسية من الدقة والصدق، كما لا يمكن التصدي لوسائلها غير المرغوبة أو التحكم فيها بأية صورة. ويمكن نقلها بشبكات عالمية ضخمة لتقوم بالتشويه أو التحريض أو الإعلان أو الإفساد. ويمكن أن تستخدمها كيانات غير رسمية مثل تنظيم القاعدة لتوجيه أتباعها والسيطرة عليهم وتحريضهم.

إن توافر التكنولوجيا المعقدة، أياً كانت، يجعل حياتنا أفضل؛ لكنه أيضًا يسمح للجماعات الإرهابية بالتواصل فيما بينها والسيطرة على شبكاتها عن طريق نشرات مجانية عبر خلايا هاتفية رخيصة السعر، وفاكسات ومواقع على الإنترنت. وهي تيسر لهم الحصول على مكونات أسلحة مدمرة والمعرفة بكيفية استخدامها حتى تسبب أكبر أذى.

كانت النتيجة النهائية لتزامن انهيار الشرق وارتباك الغرب مع القوى الكوكبية الجديدة الجامحة هي زيادة الاضطراب وعدم الاستقرار في العالم. ولم نفكر ملياً فيما سيحدثه هذا العالم الجديد المشوش من آثار على أمننا، ولا في كيفية التعامل معه.

إننا نعوّل باستمرار على قبضتنا القوية الوحيدة ـ القوة العسكرية ـ حتى عندما تغيرت طبيعة الحرب ذاتها جراء عاصفة كاملة سببها عدم النظام العالمي الجديد. فالحرب الجديدة تتطلب نوعاً جديداً من المقاتلين، ونوعاً جديداً من القوى العسكرية.